من
التراث الكنسي

معرفة الله

كأسمى هدف وأعظم فرح للحياة[١]

(٣)

(١) هل يمكن معرفة الله من خلال العقل؟

دعنا نفحص الآن موضوع كيف يمكن معرفة الله؟ سوف ننظر أوَّلاً إلى السُّؤال: هل يمكن أنْ يُعرف الله مِن خلال العقل، أي مِن خلال عقلنا فقط؟

الجواب الأرثوذكسي الأساسي والأصيل هو أنَّ الله لا يمكن معرفته فقط مِن خلال العقل أو المنطق، حيث لا يمكن للمرء أنْ يُبَرهِن على وجود الله مِن خلال المنطق، كما أنَّه لا يمكن لأحدٍ أنْ يدحض وجود الله مِن خلال العقل. نقرأ في الكلاسيكية الروحيَّة: "سحابة عدم المعرفة *The Cloud of the Unknowing*" أنَّه قد يُمكن أنْ يُحَبَّ الله جيِّدًا، ولكن لا يمكن أبدًا استيعابه مِن خلال الفكر. بالحب يمكن التأمُّل فيه واقتناؤه، ولكن بالفكر لا يمكن أبدًا. نسمع أنَّه يُقال إنَّ "العِلم يُبَرْهِن"، ولكن العِلم في حالاتٍ عديدة لا يُبَرْهِن، ولكنَّه يضع احتمالات فقط. يمكن للعقل أنْ يضع احتمالات رائعة لوجود الله، لكن لا يمكن أنْ يضعه في أنبوبة اختبار و"البرهنة" عليه. ""اللاهوت ليس أمرًا مُتعلِّقًا بالعقل، لكن كما يتكلَّم القدِّيس بولس أنَّه يتعلَّق بِـ "فِكر المسيح"" (الأب بول إيفدوكيموف Paul Evdokimov).

يمكن أنْ يقدِّم العقل احتمالات قويَّة، كما يمكنه أنْ يُعطي دلائل وإشارات أنَّ الإيمان بالله هو أكثر منطقيَّة مِن عدم الإيمان به، لكن لا يمكن إثباته والبرهان عليه. لماذا؟ لأنَّ الله لا يمكن أنْ يُوَضَّح بتعبيراتٍ لا لَبْس فيها في قوالب مِن المنطق. إنَّه ليس نظريَّة يمكن إثباتها أو مادة تتم دراستها. الله روح، لذلك لا يمكن وضعه تحت المجهر وتحليله، لكنَّ العقل يمكن

---

(١) عن كتاب بعنوان:

Anthony M. *Coniaris، Knowing God Life's Highest Purpose & Joy.*

أنْ يُهيِّئ الطَّريق لمعرفة الله. على سبيل المثال، يُشير النظام والتَّصميم الموجودان في الكون إلى وجود مصمِّم ذكي. لا يمكن خروج النِّظام مِن الفوضى، فالتَّصميم يفترض وجود مصمِّم ذكي، وهذا ما يُعْرَف بمذهب التكوين من وضع نظامي argument from Design. إذا وجدتَ نفسك عالقًا في جزيرة على البحر الجنوبي، وقد بدا أنَّها غير مسكونة، ولكن فجأة وجدتَ ساعة يد في الشُّجيرات، فسيكون مِن المعقول أنْ تفترض وجود كائنات عاقلة في مكانٍ ما حولها، وسيكون مِن غير المعقول أنْ تفترض أنَّ السَّاعة ظهرت في الوجود مِن تلقاء نفسها، وأنَّه لم يكن هناك صانع ساعات في أيِّ مكان. وعلى سبيل المثال أيضًا، اعتقد أرسطو Aristotle أنَّ الحركة الدَّقيقة والمنظَّمة للأرض والقمر، والتكوينات اللانهائيَّة في الفضاء، تُشير إلى وجود محرِّك رئيسي ذكي.

الشَّيء المهم في عمليَّة الخلق هي أنَّها تكشف وتُعلِن عن خالق، أنَّها تحمل توقيع الخالق. لا يخلق الله بالإنتاج الكمِّي، فلا توجد شجرة واحدة مطابقة لأخرى، كما لا يوجد وجه واحد يتطابق تمامًا مع الآخر، حتى إنَّ شعرة واحدة مِن رأسك فريدة مِن نوعها لا يوجد هناك مثلها تمامًا، ولن يكون هناك واحدة أخرى تُطابقها.

وللقدِّيس غريغوريوس النِّيصي رَأْيًا لاهوتيًّا theologized، وهو أنَّه مِن غير المعقول أنْ يُبَرْهِن المرء شيئًا عن الله الذي سيظلُّ دائمًا أبعد مِن مفاهيمنا ومعتقداتنا. وبدلاً مِن البراهين التي كانت سائدة في اللاهوت المدرسي الغربي Western scholastic theology، أصرَّ أفرام Ephrem والآباء الشرقيُّون الآخَرون على الصَّمت، مُحاجِّين أنَّ هذا الجدل الفلسفي هو: "دائمًا في حال الحمْل والألم والمخاض، ولكنَّه لا يلد أبدًا".

(٢) التَّصميم ذو المعنى INTELLIGENT DESIGN:

التَّصميم المُبدع لله (في الخليقة) يسمح حتَّى للوثني أنْ يرى يد الله عندما ينظر إلى الطَّبيعة (راجع: رو ١:٢٠). إنَّه يشهد على أنَّ الطَّبيعة نفسها، وحتى في حالتها السَّاقطة، لا تزال أيقونة لمجد الله. الكون نفسه يُسمَّى في الأرثوذكسيَّة: **"سرَّ الله".**

يوجد قول أرثوذكسي روسي يقول: **"الأرض هي الأيقونة المُعلَّقة حول عنق الله"**. العالَم هو سرُّ حضور الله، ظهور إلهي a theophany.كلُّ الأشياء المخلوقة هي **"ثياب"** الله.

يرفض أتباع نظريَّة داروين الحديثة Neo - Darwinists براهين وحُجج التَّصميم ذي المعنى، ويدحضونها بشدَّة، لأنَّ لديهم عقيدة ضدَّها، فهم يستبعدون التَّصميم ليس بناءً على أدلَّة علميَّة لكن مِن وجهة نظر فلسفيَّة تتجاوز مجال اختصاصهم، لكنَّ العلم يتعامل مع الطبيعة physics وليس مع ما فوق الطَّبيعة metaphysics، وهم غير مستعدِّين على الإطلاق لقبول أيَّة أدلة تُشير إلى التَّصميم، فلديهم عقل ضيِّق وهذه خطيئة رئيسيَّة لعالِم حقيقي. لحُسن الحظ، فالعديد مِن العلماء اليوم هم أكثر انفتاحًا على ضوء البراهين مِن جميع المصادر، حتى لو كانت هذه الأدلَّة تُشير إلى التَّصميم. العلماء مثل مايكل بيهى Michael Behe مؤلِّف كتاب: "صندوق داروين الأسود *Darwins Black Box*"، يوضِّح أنَّ هناك أدلَّة هائلة على التَّصميم ذي المعنى. أصبح مِن الواضح بشكلٍ متزايد أنَّ الشَّخص الذي ينظر إلى الطَّبيعة يمكنه رؤية دليل مباشر على الخَلْق، فليس مِن العجب ما كتبه القدِّيس أوغسطينوس أنَّ الله أعطانا إنجيلَيْن: أحدهما مكتوبٌ والآخر نقرأه ونراه في العالم الطَّبيعي المُحيط بنا. يمكننا في الواقع التعرُّف على المهندس المعماري جزئيًّا من الأشياء التي يُصمِّمها، ولذلك يرتِّل المرنِّم ويقول: **«اَلسَّمَوَاتُ تُحَدِّثُ بِمَجْدِ اللهِ، وَالْفَلَكُ يُخْبِرُ بِعَمَلِ يَدَيْهِ»** (مز ١٩ :١).

ويلخِّص الأب جورج مانزريديس Georgios I. Mantzaridis ما تمَّ قراءته للتوِّ فيقول:

"يمكن لكلِّ إنسانٍ عادل التعرُّف على الخالق مِن خلال الخليقة. إنَّ إنكار وجود الله ليس هو مجرَّد خطأ في التَّفكير من جانب الإنسان، لكنَّه دليلٌ على الوهم والتَّشويش. الأب بالاماس Palamas**، بالاتِّفاق مع الكتاب المقدَّس، يَعْتبِر المُلحد أحمقًا"**[٢].

(٣) المظهر المُخادع للعقلانيَّة:

هناك أُناس يُدْعَوْن بالعقلانيِّين الذين يصرُّون على أنَّ جميع حقائق إيماننا يجب أنْ تُثبت بمقياس العقل المُطلق قبل أنْ يمكن قبولها، ويصرُّ هؤلاء العقلانيُّون على أنَّه يجب رفض العبارات اللاهوتيَّة التي تتعارض مع العقل، بينما لا يوافق اللاهوت الأرثوذكسي على ذلك. هو لا يرفض العقل، ولكنَّه يرفض بالأحرى ما يعتبره غطرسة العقل *hubris of reason* التي تسود في الثَّقافة الغربيَّة: "العقلانيَّة". الله ليس ضدَّ

(2) *The Deification of Man*. SVS. Crestwood، N.Y. 1984.

العقل، ولكنَّه يسمو ويفوق العقل. لا يمكن لله أنْ يُعرف مِن خلال العقل فقط. علينا أنْ نتذكَّر برج بابل. لكي يعرف النَّاس الله، استخدموا ذكاءهم ومعرفتهم التقنيَّة لمحاولة الوصول إليه بمفردهم ببناء برج للوصول إلى السَّماء. وما هي النَّتيجة؟ اِنهار البرج، وكان هناك ارتباك بسبب تعدُّد اللُّغات مما أدَّى إلى الفوضى. وبالمِثل، فإنَّ العقل ينهار أمام سموِّ الله الكُلِّي، وفي نهاية المطاف يُخْضِع العقلُ نفسَه أمام الله الذي لا يمكن إدراكه بشكلٍ كلِّي. الكلمات المُجرَّدة لا يمكن أنْ تصف مَنْ لا يوصف. هذا يتطلَّب العبادة والتأمُّل والتَّواضع والطَّاعة والتَّوبة والإيمان والمحبَّة والقلب النَّقي للتعرُّف على الله، والذي ما كان لنا أنْ نعرفه أبدًا إنْ لم يكن قد أعلن لنا ذاته أولاً وأساسًا في المسيح يسوع.

(٤) جينات البشر: لغة الله:

بعض العلماء اليوم يَصِفون الجينات البشريَّة بأنَّها "لغة الله". إنَّها كتابٌ تعليمي معقَّد بشكلٍ ملحوظ، مكتوبٌ بمليارات الحروف الكيميائيَّة في تكوين رمزٍ عبقري خيالي، فهي تتنبَّأ باستعداد وقابليَّة حدوث الأمراض لدى الأفراد، ومع ذلك يُنكر علماء الأحياء الذين يتكلَّمون عن التطوُّر أنَّ كتابًا تعليميًّا رائعًا مثل هذا تمَّت كتابته بواسطة قوَّة ذكيَّة، وبدلاً مِن ذلك يزعمون أنَّ هذا الدَّليل العبقري ليس نتاجًا لذكاء الله، ولكن للتَّراكم الطَّائش للطَّفرات العشوائيَّة التي يُنظِّمها الانتخاب الطبيعي natural selection (مصطلح مقصود به الصُّدْفة). ومع ذلك فإنَّ هؤلاء العلماء الداروينيِّين Darwinian لا يُفسِّرون أبدًا الأدلَّة التي تُقنعهم بالضَّبط، وما تملكه الآليَّة الداروينيَّة مِن قدرة إبداعيَّة، ليس فقط لكتابة كتاب تعليمات، ولكن أيضًا لتطوير الماكينات الجزيئية molecular machines التي يمكنها فهم هذه التَّعليمات والتصرُّف بناء عليها. إلاَّ أنَّ عدَّة علماء غير داروينيين يرون في الجينات البشريَّة ليس فقط لغة الله الغامضة، ولكن أيضًا يد الله.

(٥) العقل بالإضافة للسِّر:

تحافظ الأرثوذكسيَّة على مفهوم السِّر في فهمها لله. لفهم الأرثوذكسيَّة يجب على المرء أنْ يقبل قيمة السِّر، فغالبًا ما يكون صدمة للمسيحيِّين في الغرب أنْ يعتبر الأرثوذكس السِّرَّ أكثر أهميَّة في معرفة الله مِن العقل.

تؤمن الأرثوذكسيَّة أنَّه مِن أجل معرفة الله، فالعقل والسِّر ليسا في خصومة، ولكن يدعِّم كلٌّ منهما الآخر. يجب أنْ يعمل كلٌّ مِن الفكر العقلاني والواقع السَّرائري معًا إذا ما أردنا أنْ نعرف الله الواحد الحقيقي كما أُعلن بالمسيح. المسيحيَّة الأرثوذكسيَّة لا ترفض العقل، لكنَّها ترفض تأليه العقل الذي يُعتبر الطابع المميِّز للكثير مِن علوم الفلسفة واللاهوت الغربيَّيْن.

(٦) حكمتان:

يشرح المطران هيروثيئوس Hierotheos فيقول:

"... مِن الواضح أنَّ الرُّهبان يكتسبون الحكمة الإلهيَّة طوال حياتهم. إنَّ معرفة الله ليست ثمرة أعمال عقلانيَّة، لكنَّها إعلان مِن الله نفسه. يجب ألَّا يتوقَّع الرُّهبان أيَّ شيءٍ مِن التَّعليم الخارجي، لاسيما مِن الفلسفة. إذا ابتغى أيُّ شخصٍ قبل أن يُفكِّر في الرَّهبنة أن يتعلَّم المزيد مِن هذه العلوم لنفسه، فليس ذلك محظورًا، ولكن بالطَّبع لا يجب أن تُؤخذ كأمورٍ مُطْلقة أو مسلَّم بها أو كحقائق لاهوتيَّة[٣]".

(٧) استبدال المعرفة الاختباريَّة لله بتركيبات فكريَّة:

العالِم اللَّاهوتي الأرثوذكسي المشهور كريستوس يانَّارس Christos Yannaras يشرح الفرق العظيم بين الشَّرق والغرب في كيف يُعرف الله، فيكتب ويقول:

"... هدف الكنيسة النهائي ليس هو الارتقاء بالفرد أخلاقيًّا أو ترسيخ عقيدة مُعيَّنة، إنَّ الكنيسة تسعى إلى تألُّه البشريَّة (تشترك في الحياة الإلهيِّة) عن طريق الشَّركة في حياة الله غير المخلوق، والممنوح كهبة مِن النِّعمة.

أمَّا الغرب، فقد استَبْدَل هذا الهدف الاختباري بأُطروحات فكريَّة، وافتراضات ميتافيزيقيَّة، وحجج منطقيَّة، بالإضافة إلى فكر البدليَّة القانونيَّة (البدليَّة العقابيَّة) عن الله، وتحوَّلت الخبرة المسيحيَّة القائمة على الاتِّحاد بالله إلى تديُّن أيديولوجي تصوُّري، ونظريَّات فكريَّة مجرَّدة[٤]".

---

(3) *Gregory Palamas as a Hagiorite*. Metropolitan Hierotheos of Nafpaktos. Birth of the Theotokos Monastery. Levadia، Greece. 1997.

(4) *Christos Yannaras: Orthodoxy and the West*. Translated by Peter Chamberas and Norman Russel. HCO Press. Broo;line، MA. 2006.